الفصل السادس عشر

الزيارة الثانية لنجران

عدنا إلى نجران، بعد غياب طويل. كانت نجران لنا مأوى أمن وراحة بعد ما واجهناه من البلايا العديدة، التي سرعان ما نسينا كل شيء عنها بعودتنا إلى هذه المناظر المألوفة والتي سأقيم فيها مؤقتاً لمدة ثلاثة أسابيع قبل أن أغادرها إلى الأبد. لديَّ الكثير لأقوم بعمله -فمثلاً عليَّ أن أنهي موضوع إقامة أعمدة الحدود عند رأس نهوقة وأن أعيد فحص ممرات الموفجة- وعلى أي حال، فإنني أعرف هذا المكان بما فيه الكفاية ليجعل هذه الأشياء سهلة الإنجاز. تغير الكثير في نجران وبصورة كبيرة منذ إقامتي الطويلة هنا في الصيف، لم يشمل هذا التغيير فقط حالة الطقس، الذي هو الآن على درجة من الكمال كما يتمنى المرء.

ولا يزال أهل نجران، حقيقة، يعيشون في الخيام وعشش الوتل خوفاً من الصدم المروع ألا وهو حمى الواحة، التي لا تزال كامنة بين مزارع النخيل بعد سيول الصيف. لقد انتهى حصاد التمر الذي كنا قد تركناه في بداية نموه عندما غادرنا نجران في شهر يوليو الماضي، كما أفسحت الأعناب البيضاء الصيفية المجال إلى الأعناب السوداء الوفيرة الآن في كل من الفرع وصعدة. أصبحت محاصيل الذرة التي كانت في بداية نموها في شهر يوليو جاهزة للحصاد الآن وكأنها غابات لنباتات طويلة متينة السيقان تتحرك قناديل ثمارها مع حركة النسيم، ويتطاول نموها فوق المماشي المحلية وحتى فوق الطريق الرئيس في تجاهل عظيم لما صنعه الإنسان بيديه. كان علينا، حقيقة، أن نبحث عن طريق يوصلنا إلى مقصدنا وذلك

بالدوران حول مزارع الدخن التي تقع أمام قصر أبالسعود، لنصل في النهاية إلى البناء من ناحية الغرب، علماً بأننا كنا قد قدمنا أصلاً من جهة الشرق. ارتفع نبات الدخن، في المتوسط، إلى ١٢ قدماً، وهنالك العديد من السيقان التي تجاوزت ارتفاع ١٥ قدماً وكانت في غلظ نبات الخيزران، لم أر مثل هذه السيقان للدخن في أي مكان آخر.

كانت هنالك تغيرات أيضاً بين إطار موظفي الحكومة. فقد اختفى سالم أفندي بوجهه الباسم وجسمه المربع، من وظيفة رئيس الشرطة، وحل مكانه الدعيجي، حينما أفرزت المشاكل التي أشرت إليها سابقاً في نقل سالم إلى موقع آخر. يشرف محمد البيومي الآن على إدارة الدخل بدلاً عن علي الجنيدي، الذي إما أن يكون قد نقل إلى موقع آخر أو أن يكون في إجازة مؤقتة. لا يزال محسن جلال على رأس عمله في محطة اللاسلكي غير أن بديله واسمه هنيدي، كان في الطريق إليه وقد وصل بالفعل بعد أسبوع.

لا يزال الأمير -بالطبع- مستمتعاً بصلاحياته، وهو ممتلئ ثقة بنفسه، وبشوش، وقد فرح كثيراً بالنجاح العظيم لمغامرتي في الجنوب، التي كان له نصيب الأسد في إعدادها. سرتني كما سرت النشمي تلك التلغرافات التي جاءت بالتهنئة التي وصلت من الملك، والذي كان في حينها في حائل، ومن الأمير فيصل، الذي كان في عدوة في طريقه إلى هنا. أدهشني أنني لم أر القاضي -عبدالمحسن- إلا مرة واحدة هذه الأيام- وأعلن لنا عن خبر وفاته خلال هذه الفترة أو قليلاً بعدها، ويبدو أنه قد مات مسموماً بشراب المحنة، الذي قدمته له زوجة غيورة من زوجاته، أو زوجة محلية قد خذلت فيه. لقد كان بصحة ضعيفة جداً، حينما زرته في اليوم التالي لوصولنا وكان ذلك في داره خلف المسجد، يبدو كأنّه

كان من ضحايا حمى الواحة طيلة ثلاثة الأسابيع الماضية. كل ما استطعت أن أقدمه له هو إرسالي له دواء الكوينين الذي أحضرته معي من حضرموت.

لقد استقر أمر موضوع العملة المحلية، وهذا أحد التغيرات التي حدثت، وتم لصالح الأهالي –أنه استسلام، رشيق من ناحية السلطة، لابد منه، لرجل الشارع وللمنطق. فقد قاطع التجار التعامل مع ٧٠٠٠ ريال سعودي التي تم إرسالها من مكة لتدشين النظام الجديد، وأرغمت الحكومة على القبول بالأمر الواقع. كان النشمي مسروراً من أعماقه من هذا الإخفاق الذي واكب مصلحة المالية والتي قد أرغمت الآن على إعادة التعامل مع الدولار القديم لماريا تريزا الذي عاد لموقع سيادته برغم تخفيض قيمته.

أصبحت الحكومة الآن مستعدة لقبول الدفع أو الدخل أو أي مستحقات أخرى بالعملة القديمة المألوفة بسعر ٢٢ (قرشاً نيكلياً قرش دارج) في مقابل (قرش ميري) –وهي عملة رسمية لا وجود لها ذات قيمة مضاعفة–، بدلاً عن ٢٤ قرشاً، وهو السعر الذي عرضته الحكومة لشراء دولارات ماريا تريزا في السوق. كان سعر التعامل السائد في السوق لكل المعاملات في هذا الوقت هو ٢٦ قرشاً على الرغم من السعر الرسمي، وهذا يعادل زيادة في الضرائب المحلية حوالي ١٥,٥ في المائة. ما زال الحظر قائماً على الذهب من جانب مصلحة المالية، وقد تم خلع العملات المحلية وهي البقشة والشامي (كلاهما يمنية) من التعامل والتداول، ولم يكن هذا، بالأمر المهم ذلك لأن التجار يستطيعون شراءها بأسعار مغرية، يحددونها بأنفسهم، ثم يبيعونها في اليمن بمقادير كبيرة بمقابل الدولارات أو البضاعة. كان كل فرد مقتنعاً ومكتفياً في قرارة نفسه ما عدا دافع الضرائب. لقد أحضرت معي –بالمناسبة– حقيبة كبيرة مملوءة بالبقشات من اليمن، غير أنه، لما

كان سعر البقشة هو ٨٠ في مقابل الدولار، فإن الحقيبة لا تمثل مبلغاً كبيراً، وعليه فإن محتـوياتها يمكن أن توزع بسخاء أو في تسديد أثمان الطـيور والحيوانات التي كانت تُحضر إليَّ على الدوام.

قضيت صباح اليوم الأول أصفي الحسابات الخاصة برحلة العودة من شبوة مع رفاقي وكـان إجمـالي ما تم صرفـه هذا اليوم هو ٧٢,٥ جنيـهاً إستـرلينياً ذهبـياً ونصف الجنيه. كان كل واحد منهم مقنعاً ومكتفياً بما ناله من نصيب من الأرباح، واختفوا تدريجياً في الصـحراء، ولم يبق معي بعد يوم أو يومين إلا كل من ناصر بن شماخ وابن مدعر، وهما لا يزالان يحاولان كسب المزيد من المال على حساب الأمير. أخبراني، كما أخبرني من قبلهم مـعيض من مواطني مسفر قبل مغادرته، أنهم مسـتعدون للعـمل معي في أية حـملة أخطط للقيـام بها. كان هذا الشـعور الجمـيل مؤثراً جـداً. ولعلي أكون قـد دفعت لهـما من النقود مـا يكفي وزيادة، حسب مستواهم المتدني، غير أنني استخدمتهم بشدة عنيفة.

كان إحسـاسي صادقاً بالعـودة إلى نجران الوطن وأنا أقود السيـارة ذلك اليوم الأول أعلى الوادي حيث الجلاميد الجرانيتية على الجانبين، واللون الخمري الفريزي لسلسلة الحجارة الـرملية والتي يقف بينها منعزلاً، في مـقدمتها جـبل أبو حمدان العاري الرأس. استقبلنا الأمير بالقصر بمجرد وصولنا، وكان قد تناول وجبة الغداء حينها إلاَّ أنه دعـانا إلى طبق مملؤ بالعنب الأسود، وقدم كذلك القـهوة لتدفع عنا ضربات الجوع إلى حين مـوعد العشاء -الذي كان عـبارة عن طعام لوردي يتكون من أرز نظيف ومن لحم ضأن جيد الطبخ ومن إدام عادي ومن صحون مختلفة من خضـراوات، ومرق، ودجاج وأشـياء أخرى، لا يقـارن بوجباتنا في الصـحراء. استلمت خـلال ذلك كل البريد الذي وصلني أثناء غـيابنا: خمـس رسائل بريدية

دفعة واحدة، وهي مادة مقروءة ستشغل أوقات فراغي لشهور عديدة. كانت الأخبار عن فلسطين أبعد ما تكون عن الطيبة وكانت الحرب لا تزال على أشدها، برغم الرسالة التي أرسلها حديثاً كل من ابن سعود، والملك غازي ملك العراق، والأمير عبدالله لما وراء الأردن، يدعون فيها المتمردين لوقف القتال منذ هذا اليوم ٢٧ رجب، يوم الإسراء، اليوم التقليدي لإسراء الرسول ﷺ من مكة إلى القدس ومنها إلى السماء، كانت الأخبار القادمة من فلسطين خلال الأيام التي تلت في تحسن، ذلك لأن القبائل العربية قد أوقفت القتال في التاريخ المحدد، مما يسر بإمكانية دخول لجنة بيل إلى البلاد في الحادي عشر من نوفمبر.

أرسل لي الأمير صندوقاً ضخماً مليئاً بالعنب الأسود عند المساء وقد كنت سعيداً أن استلقي على سريري فوق ذلك السطح المألوف لي. كان الجو، بلا شك، بارداً وكانت درجة الحرارة الدنيا في هذه الأمسيات في النطاق المريح بين ٥٠ و٥٢ درجة، وكانت الصباحيات لذيذة مع ضباب كثيف متعلق بتدنٍ فوق الوادي حتى الساعة الثامنة صباحاً، أو ما بعدها برغم محاولة الشمس الشاحبة المريضة أن تذيبه. لم أعمل الكثير خلال هذه الأيام الأولى منذ عودتي غير الاهتمام ببريدي وبمراجعة صحف يرجع تاريخها إلى أوائل يونيو.

دفعت نفسي دفعاً للسوق في أول يوم من أيام الخميس بعد عودتي، وقد رحب بي الصديق قاروتي الذي جلست عنده أرشف الشاي كل فترة الصباح بينما كنت أشتري بعض النثريات بما في ذلك الصابون والكبريت وخيوط قطن مكينة الحياكة وحزام جلد مصنوع محلياً ذو جيوب لحفظ النقود. كان من أبرز آثار الطقس البارد هو تأخير افتتاح مناشط السوق حتى الساعة التاسعة صباحاً. واستمرارية نشاط السوق إلى ما بعد الظهر، وقد بدا عدد الزوار ينخفض تدريجياً

عند الساعة الثانية والنصف ظهراً. لقد قابلت وتحادثت مع عدد من اليهود في هذه المناسبة، بينما جلس رجل في صحبة امرأتين زنجيتين (محررات) ومعه بعض البضاعة، وقد قدم لي المرأتين ضاحكاً باستعداده أن يبيعهما لي مقابل وزنهما ذهباً.

قمت بشراء بعض الأشياء المصنوعة محلياً، معظمها من الفخار ومن أعمال الجلد وقد لفت انتباهي، أثناء تجوالي في السوق، أسلوب عملية المقايضة السائدة، ذلك لأن أسعار البضائع لم تكن يشار إليها بالعملة بل بالمقايضة فمثلاً، المد (صاعان) من الدخن يباع مقابل أو في مقايضة فنجان مملوء بالبن أو أي أشياء أخرى. كان كل من سلطان بن منيف الرجل المسن، وجابر بن نصيب حاضرين في السوق، وكانا حميمين نحوي جداً، وكانا مهتمين جداً بتجاربي وقد اشترك معنا في النقاش واحد من ملاك الأراضي الرئيسين في حضن (مواجد) واسمه ابن حيدر وهو رجل عسكري الطراز، وقد دعاني لزيارة عزبته. كانت صداقة الكل لي واضحة، وكانت صدمة لي أن يلاحظ المرء أن الناس هنا، على عكس أولئك في حضرموت وفي الصحراء يسيرون بحرية وأمان دون سلاح. لقد تم الاحتفاظ بالتقليد القديم وهو لبس الجنبية (الخنجر) إلى درجة أن معظم، وليس كل، الناس يرتدون فقط غمد الخنجر فارغاً. إلا أنه يسمح فقط للشيوخ الكبار، أمثال سلطان وجابر، في ترتيب خاص اعترافاً بمرتبتهم الرسمية وولائهم، بأن يرتدوا الخنجر المألوف المطعّم بالجواهر.

ذهبت وحدي عصر أحد الأيام سيراً على الأقدام عبر السهل والمجرى الرملي للوادي قاصداً الطرف الغربي البعيد لنخيل قابل، حيث توجد مجموعة مزارع شبه منعزلة تسمى جربة. كانت هنالك سحب ثقيلة بعيداً ناحية الغرب وقد طعنتها

الشمس الغاربة بأشعتها العريضة الملتهبة. تمتد نجران أمامي بكل عظمتها وجمالها المدهش –مساحة بيضاوية عريضة وأشجار نخيل وقد امتدت في شرائط طويلة كثيفة، وقد انتشرت أبراج الناس هنا وهناك على خلفية متجهمة للجبال الجرانيتية، وعليها مسحة قرمزية مع الضوء المحتضر مضيئة من أعلاها بلمعان حجارتها الرملية المتقطع. كان جمالاً خفيفاً يدعو للتأمل في الكآبة الغامضة، يدعمها الضوء القوي الشرس المنطلق عند منتصف النهار، والذي نادراً ما يلاحظ في حالة الضوء الخفيف عند الفجر أو الغروب أو حينما تكون السماء ملبدة بالسحب. يقع أمامي من موقعي هذا، منظر ممتاز لقطاع عرضي للوادي من ناحية الشمال إلى الجنوب شاملاً قصر أبي السعود.

ينحدر جلمود الجرانيت إلى حافة شريط من مزارع نخيل وحقول دخن تمتد مسافة ربع الميل ثم يندمج مع السهل الرملي الحصوي الذي يبلغ عرضه ربع الميل والذي يقوم عليه القصر نفسه وكذلك السوق. يلي ذلك وإلى مسافة ربع الميل شريط براري نبات الحلفا ينتهي في انحدار عمقه عشرة أقدام وعرضه نصف الميل لسهل طموي يغطيه نبات الثمام حتى طرف الشريط الذي يبلغ طوله ربع الميل لرمال الوادي البيضاء العارية التي تمتد إلى صخرة متآكلة، طموية ترتفع إلى ١٠ أو ١٥ قدماً وتستمر حتى حافة شريط من أشجار نخيل كثيفة (القابل) عرضها حوالي ثُمن من الميل إلى قاعدة الصخرة الجنوبية التي ترفعها كتلة فلزية من جلاميد متساقطة إلى مستوى الجرف إلى أعلى. يبدو القطاع العرضي للوادي الآن وكأن عرضه الإجمالي أقل من الميلين من قاعدة الصخرة إلى قاعدة الصخرة الأخرى. كان طيف ألوانها جذاباً جداً يتكون من جرانيت قرمزي، أشجار نخيل داكنة الخضرة، أعواد دخن خفيفة اللون الأخضر، سهل بني اللون ومصفر، نبات

حلفا أصفر فـاقع، نبات ثمام في لون البحر الأخضـر، وادٍ أبيض، أشجار نخيل داكنة الخضرة، وأخيراً الصخرة الجلمودية ذات اللون البني الداكن. لا أعرف وادياً في الجزيرة أكثر جـمالاً من وادي نجران، باستثناء وادي الليمـون (مضيق) بالقرب من مكة.

قضيت أحـد الأيام في زيارة ثانية لأطلال الأخدود لتجديد مـعلوماتي عنها، وقد دعيت إلى تناول وجبة الغداء مع رجال الشرطة، الذين بلغ عددهم الآن سبعة أفراد أقـوياء وكلهم قد وصلوا حديثـاً منذ زيارتي السابقة. وجـدت بحيرة مجـبر سري (أيضاً تسمى سعـداً) ممتلئة أكثر من ذي قبل، حقيقـة فقد كانت مملوءة حتى الحافة. كانت هنالك مجموعة من الحمير يبلغ عددها ستة حمير واقفة داخل البركة إلى عند مستوى البطن. ترعى بتكاسل نبات القصب وغطاء نباتي مائي آخر، بينما تحلق وتدور العصافير وطيور الخطاف على مـستوى منخفض فوق سطح الماء تلتقط البعوض الصغير والذباب الصغير.

كانت طيـور الماء متوافـرة أيضاً وبأعداد كـبيرة، غـير أنها ظلت بعـيدة عند الطرف الشمالي بمجرد أن تأكـد لها وجودي. قضيت فترة مـا بعد الظهر نائماً في هدوء في ظل القصر الرئيس في القلعة العظيمة بعد أن صرفت الرجلين الذين كانا قد رافـقاني لأتـناول معـهمـا بعض القهـوة. لقد نتج عن تناولي طـعاماً رائـعاً، وبخاصة تلك الأعناب الممـتازة والبرغل (عصيدة) والذي بعـد أن تم حصاده أخذ يحل مكان الأرز في كل وجبات الأمير، أقـول، نتج لديَّ بعض القصور الهضمي الذاتي ومصحوباً بضـعف داخلي، غير أنني شعرت بالتحسن بعد ضـجعة الظهيرة بين هذه الأطلال، وبعد تناولي الشاي الذي كـان بجانبي في الترمس. كان الوقت ليلاً حينمـا عدت لقصر أبي السـعود، ماشياً كـما كان حضوري مـاشياً إلى هنا،

لتناول وجبة العشاء مع محمد البيومي الذي اكتشف أن حقله الجديد تصعب حراثته. تأخرت رواتب كل الموظفين الآن مدة أربعة أشهر متتالية، وقد وجد بيومي أن الحياة كئيبة، برغم أنه مخلص جداً في عمله. أخبرني بيومي عن حلم رآه الليلة السابقة إذ رأى فيه الملك وهو يجلس في وسط حلقة من أبنائه ويقوم بتوزيع الذهب بينهم من حقيبة كان يضعها في حضنه. ولما لمح الملك بيومي، سأله إن كان يريد بعض الذهب أيضاً، ومن ثم استلم نصيبه وعليه، فإنه يعتقد أن هنالك إمدادات نقود في الطريق إليه. كان الأمير نفسه ساخطاً جداً بسبب هذا التأخير في دفع الرواتب والذي يعني أن كل الموظفين أصبحوا مدينين للتجار المحلِّيين، والذين لم يكونوا أنفسهم أغنياء. علمت أن قاروتي وتاجراً يمنياً ثرياً آخر كان يرتدي دائماً خنجراً مزيفاً مصنوعاً من الخشب يديران أعمالهما على رأس مال لا يزيد عن ٥٠٠ ريال ماريا تريزا –حوالي ٢٥ جنيهاً إسترلينياً ذهبياً–، لكل منهما، بينما كان رأس مال التجار الآخرين يتراوح بين ٢٠ و ٥٠ ريالاً.

يوجد الآن واحد وعشرون متجراً في السوق، اثنان منها قد أنشئا حديثاً منذ مغادرتي إلى الجنوب. قامت بإنشائها الحكومة وهي ممتلكات حكومية، غير أن التجار محتجون على الإيجار الباهظ وهو ٢٠ ريالاً في السنة وقد أوفدوا مناديب لمقابلة النشمي لمناقشته حول الموضوع مشيرين إلى أن مبلغ الثماني ريالات التي تم تخفيضها عن إيجار العام الأول في مقابل قيمة تكلفة عمل للسطوح التي قام ببنائها المستأجرون كانت علاوة غير كافية. لم يكن لديَّ أدنى شك في أنه سيكون هنالك حلاً وسطاً، غير أن مستوى الحياة في نجران كان متدنياً إلى حد بعيد. كان الأمير من حين لآخر يجد معبراً للإعراب عن هذا اليأس وقد أخبرني برغبته في مغادرة نجران في يوم ما وأنه يود أن يستقر في عمل زراعي في مكان ما يقربه من

الحضارة وذلك لأجل مصلحة أسرته. لقد امتلك بالفعل بعض العقار الواعد في تربة، حيث يقوم وكيله بتركيب مضخة تعمل بالزيت تسحب المياه من البئر.

وصل في أحد الأيام جماعة من يام إلى نجران قادمين من عدن، كانوا قد جاءوا عن طريق بيحان، وتحدثوا عن إشاعة هناك بأن جماعة من أبرد بالقرب من مأرب قاموا بإرسال أربعة جمال لإحضار ما تبقى من سيارة البك أب التي كنا قد تركناها بعد أن انكسر محور العجلة الخلفي في رمال الجنوب. أثبت انتقال ملكيتي رسمياً على السيارة لصالح بن حاذق في شبوة حينما ذهب بعد وصولنا بسلام إلى نجران، برفقة اللاجئ اليمني حمد القرزعي إلى تلك الأجزاء، بعد أن قرر ابن سعود عدم إبقائه في أرض سعودية بناءً على معاهدة تبادل المتهمين الموقعة بين البلدين. لم أكن بالطبع مهتماً بالسيارة البك أب المهجورة، والتي سيتحول حديدها بواسطة الأهالي إلى بنادق وأدوات زراعية. كما أوضحت آخر الأخبار حول السيارة أن المادة التي نقلت إلى مأرب بواسطة هؤلاء الناس كانت عبارة عن الإطارات والعجلات التي كنا قد خبأناها في ممر ثنية على أمل الاستفادة منها. ضاعت هذه الأشياء مني إلى الأبد، وهذا لا يهم كثيراً، ولربما كانت العجلات ذات فائدة لمالكي السيارات اليمنيين.

حضر في اليوم التالي والد رئيس رجال جمالي، واسمه محمد، والد علي بن شويل، من عند معسكره في الصحراء، بالقرب من حبونا ومعه قصة عن «صخور مكتوبة» هناك في الصحراء تقع على طريق مهجور منذ زمن بعيد وهو طريق الحج الذي يربط بين عمان ومكة. كما ذكر كذلك، أن المكان مملوء بالأرانب الأوربية (الوبر) مستجدياً بذلك اهتمامي المعروف بالحياة الفطرية. كما أخبرني أن المنطقة تقع عند الطرف الجنوبي لطويق وتسمى المندفن، وتبعد مسافة يومين

بالجمال من الحصينية، وكنت حساساً جداً وكاد الإغراء أن يدفعني إلى السير في ذلك الاتجاه. لم تكن سيارتي -للأسف- في حالة جيدة تسمح برحلات صحراوية خطرة، وكان عليَّ أن أصرف النظر عن هذه الفكرة. كان عليَّ كذلك أن أعيد السيارة إلى جدة، بقافلة، ذلك لأن بقية تجولاتي ستكون بواسطة الجمال وذلك لأن هذه المنطقة لا تصلح للسيارات. أما كيف تمكن محمد من إرجاع السيارة إلى جدة فهو أمر محير لي، ولكنه قد فعل.

حصرت نفسي مرة أخرى في موضوع الحدود. وركبت وبعض الرفاق على ظهور الحمير في الثلاثين من أكتوبر لقضاء ليلتين عند نقطة الشرطة في نهوقة بالقرب من البئر المدفونة، وهي بئر حفيرة التي لا يزالون يقومون بحفرها دون تقدم محسوس. عبرنا الوادي مع اتجاه أسفل الوادي من البديعة من عند نتوء لصخور جرانيتية حادة القطع، على جانب الوادي الأيسر، حيث وجدت عليها بعض الكتابات المتآكلة وبعض النقوش العربية الحديثة. كما كان من بين ما وجدت ما يلي: منصور بن تبان، غفر الله له. واضح أنها من عمل أحد الأقرباء المحزونين للشخص المتوفى، بينما استطعت تميز صورة لوعل وصورة لرجل يمتطي فرساً ويحمل حربة وصور لحيوانات بالكاد يمكن تميزها كخيول أو جمال. كان الشيء الوحيد المفيد في هذه الصخور هو نقش ثمودي من تسعة أحرف وواضح لحد ما. يجري وادي نهوقة ناحية الجنوب من عند الجانب البعيد للمجرى، ويقع بطن سيله على يميننا تحت جلاميد قائمة على جانبه الأيسر.

ينطلق هذا المجرى في نهاية الأمر بين (حضن) والبديعة -وكلاهما أرض تابعة للمواجد-، وقبل أن يصلهما فإنه يعبر بمجموعة من الآبار القديمة التي كنت قد زرتها مع الأمير عند قدومي الأول إلى نجران. كانت الفكرة هي إعادة إحياء

هذه الآبار إن أمكن ذلك، وعليه إعـادة إحياء القرية القديمـة (ربما عصور وسطى) والتي أثبتت أطلالها أنها كانت موجودة. كانت بئر سارة أولى هذه الآبار التي بدأ العمل في إحيـائها ويتواصل في تقدم، كان العـمل فيها قد بدأ قبل شـهرين فقط (في مايو) وتم الحصـول على قدمين من الماء عند عمق سبع قـامات من السطح، غير أنهم قاموا حتى الآن بعمل تجويف صغير، قطره حوالي ٣٠ قدماً، وذلك في موضع الطمي غير الثابت الذي كانت تعمل مـنه بلوكات اللبن لتبطن البئر سابقاً، والذي يقتلع الآن استـعداداً لصنع البطانة الجديدة لجدران البـئر والتي ستكون هذه المرة من الحجارة التي قد تكومت بالفعل بجوار موقع العمل استعداداً للتنفيذ. تقع هذه البئر إلى خلف وسط (حـضن) مسافة ربع الميل وقريباً من حـافة حقول الذرة الصفـراء. توجد بئر فريحـة التي أعيد تشغـيلها على الجانب الأيسر لمجـرى سيل نهوقة وهي بئـر قديمة ويوجد الماء فيـها الآن على مستوى ثلاثـة أقدام وعلى عمق ثماني قامات.

كمـا توجد منصـة من حجـارة صغيـرة تقع إلى ما وراء هذه البـقعـة، وقد تلاصـقت الحـجارة بالأسـمنت على السطح وعـلى الجوانب، ربما كـانت تعـمل كمستودع للماء أو كموقع شـرب للمواشي. تقع بئر المدينة قريباً من هذه البئر من ناحية الغـرب، والتي أزيل بناؤها القديم وأعيد بناء برجها من الحـجارة. كان قطر فم هذه البئر حوالي ١٥ قدماً وعمقهـا حتى مستوى الماء حوالي سبع قامات. تقع على جانبها أطلال قرية قديمة ومن بين هذه ما يبـدو وكأنه قصر قد شيد من اللِّبن والذي يمكن مشـاهدة العديد من أجزائه المحطمة. لعل هذا كـان جزءاً من المدينة، وإلى ما وراءه تقع المقبرة الحديثة التي يستخدمها أهل (حضن). تأتي بعد ذلك بئر شـقق، وقطرها ١٢ قدمـاً ويصل عـمق مائهـا إلى ١٨ بوصـة على عمق ثمـاني

قامات. يهبط عند هذا الموقع مسيل كلفة إلى مجرى نهوقة من جانب أبي حمدان الذي وجدنا فيه عدداً معتبراً من القبور القديمة مبنية من صخور جرانيتية ضخمة. كما توزعت قبور مشابهة على سفح أبي حمدان على مستوى أعلى عند فتحة ممر نجد الذي يشبه الساعة الرملية ويبلغ خصره حوالي ٥٠ ياردة. لقد تحدثت عن منطقة الآبار هذه بتفاصيل أكثر، لأنها ربما تكون ذات أهمية مستقبلاً كقرية مهمة.

مررنا بعدد من الأعراب في مخيماتهم الصيفية تحاشياً للحمى، أثناء مسيرتنا في وادي نهوقة المكسو بالأراك وبشجيرات الطلح. دهشت حينما علمت أن هؤلاء المعسكرين في أجمل مواقع الوادي وأكثرها ظلاً، وبجوار نقطة الشرطة، لم يكونوا من أهل نجران ولكنهم كانوا من المهاجرين القادمين من أرض وعيلة اليمنية، وقد قدموا إلى هنا للاستمتاع بالسلم والأمان الذي جلبه النظام السعودي. لم تكن مساكنهم من الخيام، بل أقمشة تشد من شجيرة إلى أخرى لتقيهم الحر والمطر.

كانت هنالك خيام أجنبية بيضاء مبعثرة في هذا الجزء من الوادي، وعلمت فيما بعد أنها لأفراد من الشرطة الذين تزوجوا من نساء محليات لتخفيف ضجر المنفى. تقع بئر حفيرة على بعد ٣٠٠ قدم أسفل الرأس الفعلي للوادي، الذي تكون من الالتقاء لمسيلين حول صخرة مسنقر الترسبية وقد هبطا من موقعين مختلفين من عند الجلاميد المحطمة ناحية الجنوب الغربي. هذان المسيلان هما معضد ورميح، والذي على امتداده وعند منتصف طوله يوجد نبع مستديم يقطر من شقوق الجلاميد التي تشاهد في بطنه. يتجمع هذا الماء المتقطر في بركة صغيرة من جلاميد ضخمة ويختفي الماء بين الصخور فلا يرى بعد ذلك. يبلغ عرض رأس وادي نهوقة عبر بئر حفيرة حوالي نصف الميل، ويهبط منه إلى جانب

المسيلين السابقين كل من مسيل شعيب غربه ومسيل شعيب منقل. يقع إلى أعلى ممر شعيب منقل الشديد الانحدار ممر يقود إلى عقبة نهوقة ويسيطر على درب نجران – صعدة. كانت الجلاميد عند رأس هذين المسيلين الأخيرين أقل ارتفاعاً وأكثر تكسراً مقارنة بالجدران الترسيبة للجانب الأيسر للوادي. تنمو على جوانب مجرى السيل الفعلي أعداد من أشجار العلب (السدر) وقد امتدت ظلالها فوق مساحة واسعة.

صحوت متأخراً في اليوم التالي وقد بلغت الشمس كبد السماء حينها بدأت عملي الذي ساعد في تنفيذه النشاط الذي قدمه لي حمد، وهو شاب ذكي من أبناء وعيلة من منطقة الفرع، وهو حالياً يعسكر مع أقربائه في نهوقة. بدأنا الآن التسلق الشديد والصعب في شعيب منقل والذي كانت تطرقه ذلك الوقت مجموعة من الجمال والجحوش وهي محملة بالبضائع في طريقها من نجران إلى الفرع. أدهشني أن هؤلاء الناس الغرباء يحيوني بالاسم، ولعلهم قد رأوني مراراً في السوق.

وصلنا بعد حين إلى موقع تماس الحجر الرملي عند ارتفاع ١٠٠٠ قدم فوق رأس وادي (نهوقة)، كما بدأنا نلاحظ وجود نقوش على الجلاميد على جانبي الممر، وأغلب الظن أنها مما تركه بعض عابري الطريق، تسجيلاً لزيارتهم. وجدنا هنا أيضاً قبراً ذا أبعاد ضخمة مبني من حجارة رملية ضخمة، ووصلنا بعد ارتفاع ٥٠ قدماً فقط إلى رأس شعيب منقل، والذي كان هو أيضاً العقبة، ثم خرجنا إلى هضبة ذات اعتبار، يستمر عليها الطريق إلى أن يتفرع على مسافة الميل الواحد لنتجه ناحية الجنوب الشرقي فوق أرض الفرع الصعبة ثم نحو جنوب الجنوب الغربي فوق وادي سهل تجاه الطرف الشمالي لسلسلة عشة ومن ثم يتجه إلى

صعدة. كما يتجه ممر الفرع جنوباً ناحية وادي ضيدة ووادي أملح وكلاهما في أرض وعيلة، الأول منهما يقع خلف سلسلة قهر الغول ذات القمة البارزة عند طرفها الشرقي.

لقد اكتشفت أنه لا يوجد عمود حدودي على العقبة التي يشار إليها بالرقم (٦أ)، وأن الإسمين نهوقة ورأس غربة يوظفان للإشارة إلى العمود الحدودي رقم ٦ عند رأس شعيب غربة على بعد نصف الميل تجاه الجنوب الشرقي إلى عند الممر الفعلي. رأينا في هذا الممر خمسة أضرحة جيدة البناء، ثم اتضح لنا أنها بداية لمقبرة كبيرة، تسمى ردم سرو تغطي مساحة تبلغ ٥٠٠ ياردة مربعة تقريباً وواسعة جداً. كان بعض هذه الأضرحة جميلاً، يذكرني بتلك الأضرحة في تلال محيش وتلال رويك وكلاهما شرق مأرب. وارتفع أحد هذه الأضرحة إلى علو خمسة أقدام، وهو دائري الشكل بقطر يصل إلى ١١-١٢ قدماً، وهو مبني من ألواح مسطحة من حجر رملي وحجرة مركزية للجثمان. كان سقف هذه الحجرة مغطى بألواح غير أن هذه قد تم العبث بها، وكذلك تم العبث بالمدخل ووصل العبث إلى الممشى الذي يقود إلى الحجرة، ربما حدث هذا بواسطة اللصوص.

كانت بقية المقبرة ذات مظهر خشن بدائي محتوية على قبور عديدة ذات أحجام مختلفة وأشكال مختلفة، وتشبه في عمومها المقابر البدائية التي تشاهد حول ميين. كان هنالك قبر كبير يقع في القسم الشرقي لهذه المقبرة، عند النهاية الجنوبية لشريط طويل من القبور كلها مكونة من أكوام من حجارة، وقد امتد شريط آخر من القبور أيضاً من عند هذا القبر الكبير ولكن في اتجاه الشرق ومسافة ٥٠ ياردة، مكوناً جداراً مصمتاً يرتفع إلى ثلاثة أقدام ويصل عرضه إلى ثلاثة أقدام أيضاً.

كان أكثر ما يميز هذه المقبرة، عن تلك التي رأيتها من قبل في ناحية الجنوب، مثل رويك، ومحيش، ومبين، أنه في حالة هذه المقبرة فإن معظم ألواحها الحجرية الرملية، خاصة تلك الموجودة في الأضرحة الكبيرة الجيدة البناء بالقرب من العقبة وما جاورها، تحتوي على النقوش. كانت هذه النقوش من ثلاثة أنماط هي: نقوش ثمودية -واضح أنها ما قبل الإسلام- ونقوش يهودية -ربما حديثة نسبياً- وأهمها كلها نقوش حميرية. توصلت إلى الاستنتاج، الذي أضعه هنا، وهو أن هذه النقوش لا علاقة لها بالقبور، ولربما كانت من أعمال الرحالة والمسافرين الذين يعبرون من هنا ويمضون بعض الوقت في الراحة بعد عبورهم للعقبة أو قبل الهبوط منها. يبدو أن كل النقوش قد كتبت في الموقع نفسه، أي على اللوح المناسب نفسه على القبور القائمة في الموقع في الوقت الذي عبر فيه كاتب النقوش عما في نفسه أثناء سفره.

إذا كان هذا التعليل هكذا، فعليه تكون القبور أقدم من النقوش، ولا بد أن تكون قد تم بناؤها أثناء العصر الحميري أو العصر السبئي أو قبله. أميل إلى ترجيح كفة التاريخ القديم بمقارنة الوضع هنا مع قبور محيش والتي كانت خالية تماماً من النقوش، برغم أنها لها نفس خصائص أضرحة سرو. كان هذا هو كل ما أمكنني أن أسقطه من ضوء على مشكلة غامضة استغرق تفكيري فيها وأنا جالس ومعي حمد على أحد الأضرحة الكبيرة عند الطرف الغربي للمقبرة نتناول غداءنا المكون من اللحم المقلي البارد ومن الخبز. لم يتناول حمد اللحم المقلي البارد، متعللاً بأن معدته لا تحتمله، وذكر لي أنه من عادتهم أن يتم غلي لحم الضأن، هذا برغم أنني لم أقابل قط أي عربي لا يأكل اللحم المقلي. كان حمد شاباً لطيفاً، قادراً على الكتابة والقراءة، وقد درس في مدرسة الفرع، ويبدو أنه قد

استفاد من تعليمه هذا، ذلك لأنه قام باستكشاف المقبرة كلها ويعرف تماماً مواقع النقوش بها. كانت أبعاد تجولاته الأخرى في كل حياته هي ضيدة وصعدة على جانب، وحبونا على جانب آخر.

نظرت بلهفة عبر هذا الفضاء العريض لأرض الحجارة الرملية التي تكون حيناً لفائف من صخور ناعمة ضخمة، وتكون حيناً آخر ممزقة إلى قطع مبعثرة عند قاعدة السلسلة الصخرية العارية وقد فتتها المسايل العديدة والأودية. نظرت بعيداً ناحية عشة وعويدية، ومن خلفهما صعدة التي لا تشاهد من هنا، ثم نظرت إلى البعيد، إلى وادي ضيدة وأملح اللذين لم يستكشفا بعد، وقد سدا مجال الرؤية أمامي. تبقى عليَّ أن أقوم بزيارة إلى العمود الحدودي عند رأس شعيب غربة على الجانب الشرقي للمقبرة العظيمة، التي كانت عبارة عن مجموعة أكوام صغيرة من حجارة من صخر أسود مكوَّمة على حجر رملي أصفر. أستطيع من عندها رؤية قصر أبي السعود ومتاجر سوق التي تقع ناحية الشمال، وأستطيع كذلك رؤية أم خرق التي تقع ناحية الشرق، وتل بقعة وبالطبع، عشة باتجاه صعدة.

تم النظر في أمر الحدود في منطقة نجران من عند تنصب إلى فرد ولم يبق عليَّ إلاَّ إعداد الخريطة، وهبطنا أنا وحمد إلى المعسكر الذي وصلناه عند الساعة الخامسة مساء. كانت مأمورية لطيفة بكل المعنى، وبرغم أننا لم نتناول الماء من الساعة التاسعة والنصف صباحاً وحتى الخامسة مساءً، برغم أننا كنا معرضين لوهج الشمس طيلة النهار، إلاَّ أنني لم أشعر بالعطش، غير أننا بلا شك قد سعدنا جداً بشرب الشاي عندما رجعنا إلى المعسكر. لقد قابلتنا امرأة ترعى بعض الأغنام عند رأس العقبة، كان بودها أن تقدم لنا الحليب، غير أننا لم يكن لدينا وعاء، كما لم يكن لديها هي وعاء لحلب الأغنام فيه. كانت من أهل وعيلة وتكون في النسب

خالة لحمد. أخبرتنا أنها قد تكون سارحة مع أغنامها لما يزيد على ٤٨ ساعة وبمفردها في هذا المرعى الجاف، ليلاً ونهاراً، ومعها قربة للماء وبعض الخبز والتمر، وهي تحيا حياة منعزلة تتكرر بين لحظة سقي وأخرى، حيث تقوم برَعْي قطيعها للشرب من عند بركة في رميح. ناولتها قطعة نقود معدنية لعلها تستفيد منها في شراء ملابس، وحلي مبهرجة من السوق.

والآن، ونحن على مشارف نهاية حملتنا الصغيرة، فقد رأيت أن أضاعف المكافأة التي اتفقنا عليها أنا وحمد في البداية. كان علينا أن نبدأ رحلة العودة، فذهبت إلى نقطة الشرطة لوداعهم قبل امتطاء الدواب لرحلة العودة. كان كل الرجال في نقطة الشرطة هذه من أبناء المدينة، وقد ظلوا في موقع نهوقة منذ وصولهم إلى نجران قبل ١٢ شهراً. يبدو أنهم سعداء في منفاهم هذا وسعداء أيضاً بأنهم في منأى من حزام الحمى غير أن السوق يظل بعيداً منهم ويصعب عليهم الحصول على حاجتهم الضرورية من المؤن.

وصلنا إلى قصر أبي السعود على ظهر الحمير بعد ساعتين عند الساعة السابعة والنصف مساء. وقد أمضينا الساعة الأخيرة من الرحلة في ظلام دامس لولا ضوء القمر المكتمل (أو شبه المكتمل) الذي ظهر عند الساعة السابعة مساء فخفف من الظلام. كانت الرحلة في جملتها لطيفة وقد أحاطت بنا جوانب جدران الوادي الداكنة ولمعت نيران معسكرات العرب بين الشجيرات في الوادي وظهر المشتري والزهرة معاً مكملان لهذا المشهد. وصلنا المعسكر متأخرين كثيراً عن موعد العشاء، غير أنني وفرج، كنا قد تغدينا معاً، قد اجتمعنا مع الأمير لمناقشة الأخبار الأخيرة السيئة الواردة من بغداد حيث وقع انقلاب عسكري في الثلاثين من اكتوبر استخدمت فيه الطائرات ويطالب قادته بالاستقالة الفورية لياسين

باشا الهاشمي من رئاسة الوزارة وإلاَّ فإنهم سيقومون بقصف المدينة. وكذلك استمعنا في اليوم التالي لخبر اغتيال جعفر باشا وإلى هروب نوري، بينما أقام بكر صدقي دكتاتورية عسكرية وكان حكمت سليمان رئيساً لوزارته. نبع كل هذا من عدم ارتياح ضباط الجيش لفشل الحكومة في تطبيق التجنيد الإلزامي خوفاً من متاعب القبائل. وهكذا تسلط الضوء على العرب في هذا الوقت مع أحداث كل من فلسطين والعراق.

كنت قد قمت بزيارة الموفجة قبل عشرة أيام سبقت هذا النشاط الأخير، وذلك بغرض إجراء مسوحات نهائية للممرات الضيقة وهي رحلة تسببت في حرماني عن السوائل المنعشة طيلة اليوم الذي قضيناه في نهوقة ذلك لأن فرج، وهو يهمل قيادة حماره فوق سلسلة جبلية خلف للصفا، سقط عن ظهر الحمار وتدحرجت معه إلى أسفل السلسلة حقائب السرج التي تحتوي على بعض مستلزماتي بما في ذلك الترموسين الغاليين عليَّ جداً. لقد اشتريتهما من مكة أو جدة بسعر سدس جنيه لكل واحد منهما، وهما من الصناعة اليابانية وقد استخدمتهما لأكثر من ستة أشهر. وها هما الآن حطام أمامي، غير أنني كنت مشغولاً بالضحك على فرج أكثر من أن أكون ثائراً لخسارتي. وهكذا قضيت بقية الشهور الأربعة لرحلتي بلا ترموس.

هبطنا السلسلة، بعد أن أفقنا من وقع هذه الكارثة، إلى المجرى ثم سرنا على الأقدام تجاه الغدير كما يطلقون على هذا المكان ذو الماء الدائم في تلك البقعة التي تقع قليلاً فوق المنحنى. حلق طائر الشنقب أثناء ما كنا نقترب من الماء، كما كان هنالك مالك الحزين القرمزي وهو يلتقط سمك المنوة الصغير مما شغله عن ملاحظتنا وقد حاولنا ملاحقته دون فائدة. كان المكان مملوءاً بالطيور، فالذعرة تخوض هنا وهناك، والعصافير والخطاف تطارد الحشرات، وحدأة تحلق فوقنا بحثاً

عن الجيف التافهة وتجلس على الصخور طيـور البلاكستارتس والأبلق. كما كانت توجد خطوط عديـدة لبرك ذات مياه ضحلة في المجـرى الرملي، إلى جانب برك أخرى عميقة على جانبي الوادي حيث ينمـو بكثافة نبات الطرفاء ونبات القصب، إلى جـانب العديد من الزعـتـر البري ونبـاتات عطرية أخـرى حيث يكثـر النحل وحشرات أخرى ويضج المكان بأزيزها المتواصل. كان ارتفاع بعض نباتات القصب إلى حدود ٢٠ قـدماً وهي تحرك رؤوسهـا الرشيقـة مع النسيم الخفـيف بينما، في مواقع أخـرى من هذه المنطقة، فـإن عملية حـرق كل من القصب والحلفـا كانت مستمرة استعداداً لمراعي الربيع.

لاحظت أن العرب، إذا ما أرادوا أن يشـربوا الماء فإنهم لا يجلبونها مـباشرة من البرك، خـوفاً من الحـمى، إلاَّ أنهم يحفـرونها على عمق بوصـات قليلة في الرمال المشبعة بما يكفي لاحتياجـاتهم. كانت البرك مملوءة بأسماك المنوة وبالضفادع وبالشراغـيف، غير أنه في هـذا الوقت من العام فإن المجـرى كان جافـاً تماماً إلى مسافة ٣٠٠ ياردة من منحنى الصفا تجاه المضايق. كانت الرمال حين جفافها بيضاء ناصعة. وصلنا مـعفجة عند الساعة الثـالثة مساء، بعد أن تتـبعنا منحنى المجرى، ونصبنا معسكرنا في ظل سلسلة جرانيتية تفصل بين مخرجي الوادي. كان سفحها منقراً بالكهوف والملاجئ التي بداخلهـا استقر زملائي للحصـول على أقصى درجة من الراحة في مثل هذه الظروف.

كنت أعمل تحت أشعـة الشمس معظم الوقت إلى ما بعـد الظهر وطيلة اليوم التالي، وإلى ظهر اليـوم الثالث وبعد ذلك عدنا إلى قصر أبالسـعود. قابلت أثناء تجولاتي هذه امرأة طاعنـة في السن تحمل بعض الحطب لتعرضه لـلبيع في السوق في الموفجـة. كانت تشكو من آلام المرارة (تسميـها مر) ورجتني أن أعطـيها رأس

الخروف الذي كنا نقوم بطبخه للعشاء كما لاحظت هي ذلك تدفعها قوة إبصارها وقوة جوعها. لقد نالت المرأة أكثر من مجرد الرأس حينما حان الوقت فقد تناولت اللحم وهي منعزلة خلف حلقتنا الجذابة، وذلك قبل أن تغادر الموقع ومعها الرأس، والذي، كما أوضحت لي، ستقوم بطحنه إلى مسحوق - أعتقد أنها قصدت اللحم المتعلق به- ثم تقوم بعد ذلك بخلطه مع السمن، يبدو لنا أن هذا هو العلاج الفعال لعلتها. بدأ اثنان من أبي مطرقة عند المغرب يتجاوبان في النهر فوق المضايق، ربما لدعوة غيرهما لتناول أسماك المنوة الصغيرة ثم طارا بعيداً اتجاه أعلى الوادي لتناول المزيد. يتوافر الماء في هذا الوقت في المناطق العليا وليس في المضيق نفسه كما توجد بركة عميقة بعض الشيء أسفل المضيق.

كان اتجاه المضيق العام ومجرى الصرف من ناحية الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وكان طول المضيق الإجمالي حوالي ٢٠٧ أقدام. كان عرض مدخل المضيق حوالي ١١ قدماً، وكان عرض مدخل مجرى الصرف حوالي عشرة أقدام، من ناحية الشمال وحوالي ستة أقدام في المناطق العليا وقد يضيق أحياناً إلى أربعة أقدام ونصف القدم فقط. تكوَّن مجرى الصرف هذا عن طريق الحفر في الصخور الجرانيتية لحاجز من البازلت بالكثافة نفسها أربعة أقدم ونصف القدم يجري خلاله من جهة الغرب إلى الشرق. كان الحفر على أية حال جزئياً، فيما يخص العمق، ولعل العمل قد توقف لسبب ما، برغم أن ما قد تم تنظيفه عن طريق الحفر إلى هذا الحد ربما يكون قد أدى المطلوب منه، ذلك لأنه يوجد الآن منفذ للماء الفائض، والذي، كما سيلاحظ من هذه القياسات، يستطيع الانسياب إلى المجرى الشمالي فقط عندما يرتفع إلى علو ستة أقدام أو أكثر في الخزان من خلفه، والذي سأتحدث عنه بعد قليل. يوجد على الجانب الجنوبي للمضيق قناة للمياه يبلغ

عرضها قدمين ونصف القدم منحوتة داخل الصخر الجرانيتي وتتبع منحنيات خطوطه الكفافية مع عمق خفيف وذلك لتحمل المياه للجانب الآخر لاستخدامه داخل الثكنات أو في أية استخدام آخر. كان ارتفاع قناة الجر هذه عند نهايتها الغربية حوالي ١١ قدماً فوق ارتفاع الوادي، وواضح أن الماء لن يصلها إلاَّ إذا كان الخزان من خلفها ممتلئاً. يبعد مدخل قناة الجر هذه عن طرف المضيق بحوالي ثلاثة أقدام فقط وتبدأ على بعد ١٢ قدماً من عند مدخله الغربي، مما يجعلها تستقبل المياه من عند مقدمة انسيابه في المضيق.

أتحدث الآن عن المضيق نفسه. يتباين ارتفاع الجدار الذي يفصل المضيق عن مجرى الصرف، ناحية الشمال، ويتراوح بين ١٢ – ٢٠ قدماً، بينما يرتفع الجسم الرئيس للسلسلة إلى الشمال من مجرى الصرف وإلى جنوب المضيق إلى حدود ٢٠٠ قدم أو ٣٠٠ قدم. يصعب إسقاط الاستنتاج بأن مضيق جلد هذا قد تم قطعه صناعياً أول الأمر لغرض المحافظة على الماء ولأغراض الري وما شابه ذلك، لأن المخرج الطبيعي للوادي يقع على الجانب الشمالي للسلسلة المعارضة. يمكن القول أيضاً بأن المضيق يمثل صدعاً طبيعياً في حاجز الصخور الذي استغله القدماء لبناء نظامهم المائي.

مهما كان الأمر، فإن عرض المضيق من جهة الغرب، كما ذكر آنفاً، كان حوالي ١١ قدماً، وهو يضيق أكثر على بعد ٣٠ قدماً إلى ٣٠ بوصة فقط، ثم يتسع على بعد ٤٠ قدماً إلى أسفل، إلى حدود خمسة أقدام. كان هذا إبرة لينش، لنظام الري ذلك لأن المضيق يتسع الآن إلى عشرة أقدام على بعد ٧٠ قدماً إلى أسفل أكثر، ثم يتسع مرة أخرى إلى ٢٧ قدماً لما تبقى من الـ ٦٨ قدماً للمخرج الشرقي. لا توجد، بالطبع، علامة حقيقية لوجود السد، والذي قد

جرفته السيول لقرون متتالية، غير أنه لا يوجد شك في أنه قد كان هنالك سد وأن موقعه كان في وسط هذا الجانب الشرقي الأخير، أو حوالي ٣٤ قدماً من عند المخرج الفعلي. لقد تم قطع الصخور في الجانب الشمالي بعناية ولارتفاع عدة أقدام وذلك لتقوية إحدى نهايات حواجز السد، بينما تم قطعه في الجانب الآخر على شكل مائل إلى ارتفاع ثمانية أقدام كأنما قد قصد به الإمساك بنهاية السد الأخرى. لا بد أن تكون هنالك أبواب في السد لتصريف المياه المتجمعة حسب الطلب، لأغراض الري أو أي أمر آخر، بينما يفيض ما زاد من سعة السد من فوق جداره، ويقوم المضيق من فوق السد الشديد الضيق بكسر قوة المياه المنسابة.

أدهشني أن هذا السد على الرغم من بساطته فهو عبقري إلى حد بعيد ويمكن بلا شك تكراره لمصلحة السكان الحاليين لنجران. ستجد السيول الكبيرة طريقها بلا شك إلى الخارج عن طريق المجرى الآخر (مضيق) بينما ستكون المنطقة بين الحاجز المتعارض ومخرج الوادي من عند مضيقه الصخري المقابل، كلها مغطاة بالمياه وفي كل الأوقات لتعطي للخزان عمقاً يتسرب خلال السد.

يمكن القول بصفة عامة أن ضلع هذا الخزان سيكون حوالي ٥٠٠ متر مربع، على شكل دائري أكثر أو بيضاوي. يعطي هذا مساحة سطحية تقدر بـ ٢٥٠,٠٠٠ متر مربع وإذا افترضنا عمقاً يقدر بثلاثة أقدام للمياه فإن حجم الخزان سيكون ٧٥٠,٠٠٠ متر مكعب أو ٧٥٠,٠٠٠ طن من المياه التي ستحجز لفصل الشتاء ولأغراض الري بدلاً من ضياعها في الوادي، كما هو الحال الآن، لتنتهي آخر الأمر في رمال الصحراء. سيكون من الآثار الغير المباشرة لإعادة هذا السد والخزان هي المحافظة على مستوى عال لمياه الآبار تجاه أسفل الوادي في معفجة،

ولربما إلى أبعد من ذلك، إلى (خضراء). يتباين مستوى المياه في الأحوال الحالية بصورة كبيرة في مواسم السيول وفي مواسم الجفاف. لقد رفعت، بالطبع، كل هذه العمليات الحسابية، إلى الأمير وإلى جابر أبي ساق الذي كان موجوداً حينها، لا يبدو أنه من المحتمل أن شيئاً ما قد تم عمله تجاه هذا الموضوع في الوقت الحاضر، علماً بأن مهندساً مدنياً أمريكياً يعمل في الشركة العربية للتعدين ويدعى السيد ك.س. توتشل قد زار نجران، ممثلاً للحكومة عام ١٩٤٠م. لا علم لي بما فعله هذا المهندس في نجران حتى الآن.

أشرت أعلاه إلى قناة جر المياه جنوب المضيق والتي قصد بها نقل المياه إلى الثكنات للقوة العسكرية المتواجدة في هذه المنطقة لحماية السد. ليس هذا إلا مجرد تخمين من جانبي فلربما قصد بها جلب الماء لري الزراعة المحلية إلى ما وراء المضيق على جانب الوادي الأيمن. يتفق أي من التفسيرين مع الحقيقة في أنه في المنطقة الواقعة بين شعيب صفيرة والجانب الأيمن للوادي والوتر الذي تكونه السلسلة التي تصل بين النهاية الشرقية للمضيق والنقطة التي يصل فيها شعيب صفيرة إلى مستوى السهل، توجد أطلال لموقع كان مأهولاً في الماضي قد يكون قرية أو معسكرات كبيرة مع انتشار كبير كقطع من الفخار وقطع من خبث البراكين مما يشير إلى قيام أعمال حديدية. كانت هنالك على الجانب الآخر من شعيب صفيرة أطلال زيته ونحي، وقد سبق ذكرهما، حيث وجدت كميات كبيرة من قطع الفخار.

كنت أراقب الرجال القائمين على حراسة المحصول طيلة ساعات اليوم وهم يعتلون منصات الوتل على جانب حقول الدخن أو داخلها في الموفجة ليطردوا طيور العصافير المهاجرة وغيرها من الطيور وذلك بالصراخ المتكرر وطرقات السياط

الطويلة التي ينتج عنها صوت شبيه بصوت الطلقات النارية. كما رأيت في وقت لاحق من اليوم نفسه الرجال والنساء ومعهم الحمير والكل عائد من الموفجة بما أمكنهم شراؤه من سوق الخميس، الذي لم أحضره. تسللت عند المساء، وذلك بعد أن أنهيت عملي، ناحية المخرج الشرقي للمضيق ومنه إلى نحي بحثاً عن كسر الفخار.

رأيت ثلاثة من الزنابير عند البركة الضحلة أو عند حافتها وهي تتشاجر على جثة سمكة منوة صغيرة. لاحظت كذلك أن هذه الزنابير مولعة بالدماء واللحم، دعك عن الحديث عن الروث من كل نوع، واكتشفت أثناء جلوسي على الصخرة في نحي أراقب طيور الخطاف وهي تحلق باحثة عن فرائسها، أنني قد أصبحت قبلة الأنظار لجمهرة كبيرة من الطيور منطلقة تتكون من طائر صرد رمادي اللون، وطائرين من البلابل، وستة طيور من البلاكستارتس كانت كلها مختبئة داخل شجرة طرفاء بالقرب مني. يبدو لي أنها قد اعجبت بوجودي هنا، واختفى هذا السحر عندما نهضت من مكاني بعد دقائق للذهاب إلى المعسكر. طارت كل تلك الطيور بعد ذلك دفعة واحدة.

يبدو أنه لا يوجد بعوض في هذا الموسم في الموفجة أما الذباب فقد كان سيئاً بالنهار، ربما لوجود روث الحمير والجمال في أرض المعسكر المحلي التي تفصلنا عن أشجار النخيل. كان هنالك أيضاً ضرب من الفئران من ذوات الشعر البني الأحمر تعيش في شقوق الصخور الجرانيتية من خلفنا. كانت أصواتها المزعجة أكثر وضوحاً بين الصخور التي تشن من عندها هجومها المتكرر على أي فاكهة تكون متوافرة، وبالذات فاكهة الرمان الضعيف الذي كان متوافراً في هذا الوقت، كما شاهدت أسراباً من طائري وهي تدخل حقول الدخن ثم تطير عائدة إلى تلالها

عند إحساسها بأدنى إنذار بالخطر. مررت في إحدى المناسبات على سرب مكوَّن من ٢٥ طائراً كانت كلها فيما يبدو لي تشرب الماء من عند طرف غدير بالقرب من الصفا. حدث هذا أثناء العودة إلى قصر أبالسعود، حيث وصلت في الوقت المناسب لأحظى باغفاءة الظهيرة قبل أن أذهب لمشاركة الأمير طعام العشاء والذي احتوى كنوع من التغيير على لحم إبل ممتاز مع عصيدة البرغل. كان القمح المخلوط مع البرغل، فيما يبدو، قد استورد من خميس مشيط، ذلك لأن قافلة كبيرة قد وصلت محملة من هناك على حساب الحكومة أثناء غيابي في الموفجة.

شوهد هلال شعبان الجديد ليلة السادس عشر من أكتوبر، وبعد شهر من الآن سنكون صائمين رمضان. لم أكن في عجلة من أمري لمغادرة نجران، ذلك لأن الملك قد أوضح تماماً أنه يريد أن يرى كل الحدود مثبتة على خريطة، وكان كل ما عليَّ أن أقوم به الآن هو أن أنظم تجولاتي بالأسلوب الذي يسمح لي بإكمال تعليم الحدود مع موعد الحج الذي بقي عليه ٤ أشهر. لقد تفتتت برامجي الأصلية إرباً إرباً ولم تعد مهمة.

وصل إلى نجران في هذه الأثناء بعض يهود صعدة ، وقد رافق يوسف ثلاثة منهم، وكنت قد قابلتهم في السوق، لزيارتي. يبدو أنهم مجموعة فقيرة وتعيسة، كما يبدو عليهم المرض والشقاء. يبدو أن مستعمرة اليهود في صعدة قد تكوَّنت جزئياً من يهود مهاجرين من نجران ومن يهود مقيمين من صنعاء، وقد تركزت قلوبهم، مثلهم مثل قلب يوسف وزملائه في نجران، على التطلع إلى الهجرة إلى فلسطين، وفي هذا الأمر لم يكن لي الحق في تشجيعهم عليه. تمكن بعض اليهود الأثرياء في اليمن من الهجرة إلى هناك، أما الذين لم تكن لديهم الإمكانيات لذلك فقد كانوا يائسين. لقد أخبروني بوجود مستعمرات يهودية في حبان وبيحان وفي مناطق أخرى من اليمن.

ذهبت إلى سوق الخميس للمرة الأخيرة في التاسع والعشرين من أكتوبر، ذلك لأنني لم أتمكن من حضوره الأسبوع الماضي لغيابي في الموفجة. لقد حضرت كل أسواق أيام الاثنين الماضية وكانت دائماً غير مثيرة للاهتمام لي مقارنة بأسواق الخميس في هذه الفترة، كان آخر أسواق أيام الاثنين الموافق الثاني من نوفمبر، هو آخر يوم لي قبل أن أترك نجران وجلست مع قاروتي أشرب معه الشاي للمرة الأخيرة وأتحدث معه حول شؤون نجران والعالم. أثار دهشتي صباح ذلك اليوم، وبينا كنت لا أزال على سرير نومي أتناول شاي الصباح أن برز أمامي فجأة رجل برِّي المظهر يعلن من فوق سطح غرفتي حاجته بأن أقدم له نقوداً ليشتري بها كفناً لإحدى قريباته التي كانت قد توفيت هذا الصباح. ولما كنت لا أعرفه من قبل، فقد أمرته بالذهاب دون نقود ولعنت سعداً وغيره لسماحهم بتسلل أمثال هؤلاء الدخلاء إلى غرفتي. قال لي سعد -في خجل، مقترحاً- إنه إذا كنا بالفعل سنغادر في الصباح، فيجدر بي أن أمنحه بعض النقود لتزويد مستودعنا بالقوارير والمقالي وفناجين القهوة وأكواب الشاي والملاعق والسكاكين وغير ذلك.

كان لدينا الكثير من هذه الأشياء خلال رحلتنا إلى حضرموت وبعد عودتنا منها، وكان بالطبع هنالك بعض التلف لها وهذا من طبيعة الأشياء، غير أن هذا الطلب قد ورد إلى سمعي لأول مرة، وبالطبع فقد تم إخفاء الحاجة عني عن قصد، حتى هذه اللحظة، ذلك لأنهم كانوا أثناء ذلك يقومون باستلاف كل ما يحتاجون إليه من مستودع الأمير عن طريق خدم الأمير مما ارتقى به إلى مستوى جريمة السرقة من مستوى واسع لحق بكل حاجياتي المنزلية بالفعل. لم يكن لدينا حتى قرب المياه. كان كل شيء يسرق بلا رحمة كمتطلب لهؤلاء الرجال الذين كانوا قد كوفئوا بكرم لما قدموه من خدمات لنا واختفوا بعدها في الصحراء. كان

ذلك تحذيراً مفيداً ضد الكـرم الزائد تجاه هؤلاء القوم وكل ما أمكنني عمله هو أن أشتم سعداً باسـتمرار، وأنا أدفع له المبلغ المطلوب لتزويد مستـودعنا بما فقدناه من السوق. ذلك لأننا لا نستطيع مواصلة الرحلة دون هذه الضروريات.

عرض قاروتي عليَّ بعض التبغ اليمني، عبارة عن مادة حقيرة نحيلة تشبه تبغ سـجائر عـدن، بسعـر ريالين مـاريا تريزا ثمناً للأقـة تعادل الأقـة رطلين ونصف الرطل، كـما رأيت في مـوقع آخر مـن السوق حندازة -ثلاث أرباع اليـاردة- من قماش مصـبوغ بالأزرق وقد عرضت للبيع مقابل ثلاثة أصـوع من التمر المجفف. ولهذا التـمر أجسـام قوية صغيـرة حلوة جداً إذا تم أكلها بعـد تدفئتـها على النار بغرض تليينهـا. كان سعر عنب الفرع الأسـود، الذي يباع في السوق بالقطاعي، مرتفعاً وقد دفعت مبلغ ريال كامل مقابل عدد قليل من الأرطال.

ويباع البن في السـوق ولكن بالسر ذلك لأن الحكومة نقلت مركـز تجارته إلى ظهران وذلك لأجل السيطرة عليه لغرض الضرائب. يعتبر البن الذي يرد إلى نجران مادة مهـربة ولذلك يتعامل معـه التجار بالخفاء لتـحاشي أسئلة محـرجة. قدَّم لي قاروتي أيضاً لفة من قـماش من أكثر الأقمشة شعبـية في المناطق، وهو عبارة عن ملاءة يابانية قد تم صبغها في أسلوب بدائي بواسطة أهل زبيد بالقرب من الساحل اليمني وقـد استخدموا لذلك صـبغة النيلة المحليـة المشهورة. تباع لفـة من عشرة حندازات -٧,٥ ياردات ونصف الياردة- بمبلغ ريالين فقط، وهو مبلغ باهظ خارج إمكانيات الجـميلات المحليـات ليدفعنه، على الرغم من أنني شـاهدت عدداً منهن وهن يرتدين قمصاناً من المادة نفسها. كانت الصـبغة بدائية بالدرجة التي تبدو فيها وكأنها ستصبغ أجسادهن، ولربما حدث ذلك. أما فيما يخص الموازين والمقاييس، فإن معيـار المقاييس هو الصاع ويقسم إلى ثلاثة أسداس وسـتة أشطر (جمع شطر)

أو ١٢ ربعية. يكون الصاعان مداً واحدًا ويكون كل ١٢ مداً فرقاً واحداً. يكون الوزن السائد هو الرطل (تقريباً رطل واحد) ويزن حوالي ٢٠ ريالاً وتكون رطلان ونصف الرطل أقةً واحدةً (أكثر من الكيلو جرام بقليل). تكون ٢٠ رطلاً فرسلة واحدة، بينما تعتبر الأوقية أصغر وحدات الوزن، وتعادل ريالاً ونصف الريال، تمثلها قطعة صغيرة من الحديد مع العلامة الرسمية لحكومة اليمن. كما توجد أيضاً وبالفعل ربع أوقية وتستخدم لها حصاة صغيرة. كما تستخدم بصفة غير رسمية قطعاً صغيرة من الصدف لعمل الأوزان.

ذكرت سالفاً أن الفتيات غير المتزوجات كن لا يغطين رؤوسهن غير أنه يوجد موضتان سائدتان، إذ يطلق بعضهن شعورهن في خصلات مستقيمة مع خصلة تُقطع مستقيمة ومربعة الشكل تكون على الجبهة. بينما يكون شعر الأخريات مسرحاً بتكاسل ومدهناً تماماً بما يوحي بالاهتزاز أثناء الحركة. يستخدمن غطاء الرأس المصنوع من المسلين الأسود بعد الزواج مع أو بدون إضافة لفة صوف صغيرة حلزونية. وكان النسوة في كل هذه الحالات غير محجبات.

كانت أيام الأسواق عبئاً على الأمير الذي كان عليه الجلوس طيلة فترة الصباح في لقاء جماهيري على رأس مجلس للقضاء الفوري لسماع الشكاوى ولمطالب أي امرئ يهتم بأمر نفسه ويستفيد من مثل هذه الخدمات. كانت كل الدعاوي ذات العلاقة بالشريعة تحال إلى القاضي لإجراءات أكثر رسمية، غير أنه يوجد القليل من مثل هذه الأشياء مما يعرض على الأمير في التو واللحظة. كان صوته الحاد المخترق له تأثير سريع يؤدي إلى السيطرة على الحشود في مثل هذه المناسبات، ومن المرهق جداً السماع له على مدى فترات طويلة، غير أنه صوت لرجل اعتاد على السيطرة وعلى إصدار الأوامر. كان النشمي رجلاً إنسانياً ذا اتجاهات حضارية، غير أنه يلجأ

أحياناً إلى مزج هذه الخصائص مع القسوة التي يتطلبها أداؤه لواجبه. كانت نجران مخفراً أماميا للدولة السعودية، وغير أنها من وجهة نظر مصلحة المالية، فقد كانت عبئاً على خزانة الدولة. لقد كانت عوائدها لا تذكر، غير أنني قد دعوت إلى الحاجة إلى إعادة تشغيل السد كخطوة أولى نحو الازدهار. ذهب سالم بن منيف إلى الرياض وكان حمد بن نصيب، الذي كنت قد قابلته في أبها، في الرياض أيضاً لزيارة الملك، الذي أبدى الكثير من الاهتمام الشخصي بشؤون هذا الإقليم النائي داخل مملكته. لقد اهتم الملك أكثر بالنواحي العسكرية، ويدور الحديث عن إنشاء شبكة للتليفونات، ومحطة مركزية مقرها نقطة الشرطة في البديعة، وذلك لربط كل المحطات المبعثرة مع مركز القيادة. كان هنالك دائماً حديث يدور حول التطور والتحسين، وبلا شك فقد حدث كل ذلك ولكن في بطء.

كان جابر بن نصيب كثير الظهور، كثير التودد والخنوع كعادته غير أنه لم يقم بزيارتي مؤخراً، أما شقيقه يحيى فإنه في صحبة قبيلته بالقرب من حبونا، وقد أوفد إليَّ ذات يوم رجلاً ومعه رسالة ترحيب عبارة عن لحم المارية المجفف في الشمس وهو الجله الممتع، أفادنا هذا اللحم الإضافي إلى جانب لحم الدجاج من حين لآخر في تنوع غدائنا الذي كاد أن يكون مملاً إذ يتكون دائماً من لحم الضأن والبرغل. زارنا يحيى في أحد الأيام زيارة قصيرة من عند الصحراء كما كان جابر أبو ساق من الزوار المترددين من حين لآخر. لم يخذلني جابر أبداً فهو أينما رآني يدعوني لتحديد موعد أتناول فيه معه الغداء أو العشاء مرة أخرى.

يجلب الخروج إلى حقول الدخن متعة كبيرة لي، أو حتى مجرد الجلوس فقط في ظل النباتات الطويلة في صحبة الأمير وجماعته في برودة الأمسيات. توجهت في أحد الأيام عبر مزارع آل سوار إلى خليج الجلاميد التي تقع خلفها،

والتي وجدت عليها، كما على مواقع أخرى مجموعة عادية منوعة المخربشات إلى جانب صور بدائية منحوتة على الصخور تمثل الجمال، والفرسان، إلخ. كانت صخور الجرانيت الداكنة اللون في هذا الموقع معلمة بالعروق العريضة للفلسبار، غير أن أكثر الأشياء جاذبية للانتباه في هذا الموقع كان بيتاً ضخماً للنمل يشبه مستعمرات الأرضة في أفريقيا. وصلت إلى هنا وللأسف لم تكن معي زجاجة الموت أو صناديق العينات، كما لم تكن هنالك فرصة أخرى لي للحضور إلى هذا المكان لجمع عينات هذه القرى والتي بناءً على هذا ستظل مجهولة. كانت هذه هي بالتأكيد المرة الأولى التي أرى فيها بيوت نمل في الجزيرة العربية، كما أنني لم أسمع عن أي ضرر لحق بالمنازل، والأثاث بسبب هذه الكائنات.

حملت بندقيتي وخرجت فاصطدت حدأة غير أن فرج أخبرني أنه ليس من الحكمة قتلها. كان تعليله لذلك، وربما تعليل القحطانيين عموماً، هو أن الحدأة تحتاج عادة إلى ٤٠ يوماً لإكمال عملية التزاوج، وقتل واحدة منها يصيب قاتلها بعجز جنسي! حسب علمي فإن حِدآن نجران محترفات للقتل وبشجاعة، ولربما انطبقت الحدأة وبسرعة على مجموعة من الرجال وهم يقومون بتقطيع أوصال ذبيحة ما وتنطلق بما أمسكت به إلى البعيد ويتبعها خلفها شريط طويل للقناة الهضمية المخطوفة. لقد قمت بوضع طيوري المصبرة والتي قد أشبعتها بالصابون الزرنيخي في النافذة المفتوحة في غرفتي لتجف، غير أنني عندما عدت وجدتها كلها وقد مزقت إرباً إرباً وبعضها قد تم نقله إلى البعيد. يمكن فقط للطيور الدخول إلى تلك الغرفة، واتهمت الحدأات بعمل هذه الكارثة. كنت أستيقظ في الصباح وأنا فوق السطح لأجد الحدأة جالسة في حاجز الجدار. وكان عدد أفرادها ذات صباح ثلاثة طيور إلى جانب طائر النهس والعديد من طيور البلاكستارتس

وبعض العصافير. لم أستطع أن أتخيل ما الذي تنتظره هذه الطيور، ربما كانت في انتظار ذوبان الضباب، الذي كان كثيفاً هذه الأيام وشديد الانخفاض فوق الوادي خاصة في ساعات الصباح الباكرة، وكان يتشتت في بطء مع ظهور الشمس. لقد كانت أدنى درجة للحرارة قمت برصدها خلال هذه الفترة لإقامتي القصيرة الثانية في نجران حوالي ٤٦ درجة فهرنهايت، وكانت العليا ٨٤ درجة وهو تباين تحت الظروف الجافة الحالية يعني أن الطقس كان ممتازاً.

وصلت إقامتي المؤقتة في نجران إلى نهايتها. كنت مشغولاً خلال الأيام الأربعة الماضية بأعداد البريد الصادر وترتيب شحن صناديق كبيرة مملوءة بالعينات لإرسالها في سيارة البريد إلى جدة في طريقها إلى انجلترا. ورأيت في صباح اليوم الثالث من نوفمبر، محمد وهو يقود سيارة الفورد المخلصة القديمة إلى خارج ساحة قصر أبالسعود في صحبة سيارة البريد المحملة بما يقارب ١٤ صندوقاً كانت تحتوي على حصيلة عينات تم جمعها خلال العديد من الشهور الماضية مع عدد من الركاب المختلفي العناصر. كنت أتمنى أن لو كنت في صحبتهم، غير أنني صرفت هذه الأفكار عندما تحركت من عند البوابة لألحق بالأمير لنتناول معاً آخر طعام غداء لنا. يصعب عليَّ ويستحيل أن أشكر الأمير بما فيه الكفاية، ذلك لأنه يوجد القليل من الرجال الذين أكن لهم هذا الإعجاب الودود الممزوج بالجميل الصامت لكل ما قدمه لي مما أدى إلى نجاح حملتي. كانت جمالنا كلها جاهزة عند الساعة ٢,٥ ظهراً، وخرجنا عبر البوابة الشرقية في شريط طويل، إلى خارج القصر، ولآخر مرة وانطلقنا عبر حقول الدخن وأشجار النخيل تجاه الفجوة في خليج تعزه.

ترجلت عن مطيتي عندما وصلنا إلى هنا وتسلقت تل كبد النقة، لألقي نظرة عامة أخيرة على وادٍ جميل أصبح مألوفاً جداً لدي. كانت هناك، كل العلامات الأرضية الصديقة لي – منارة، وعن دريب، ومن خلفهما برك، وأم خرق والأخدود ذات البحيرة الصغيرة ونقطة الشرطة، وأبو حمدان وقرن بلحارث وغيرها.

يمتد أمامنا سهل سعيد حيث سيكون معسكرنا لقضاء ليلتنا الأخيرة في الوادي بالقرب من خيام جابر أبي ساق. تقع مقبرة المخلاف عند أسفل التل على جانب سهل سعيد، وهي بعيدة تماماً عن أشجار النخيل، كما هي العادة المحلية. ضربنا عبر غابة طلح كثيفة اخترقنا فيها مسايل السيل لكل من الموفجة وذي حامي التي تنحدر من التلال المحيطة، وتكون ضحلة جداً في السهل، بدلاً من كونها مجاري فعلية، ذلك لأن خطوط الصرف هذه إلى جانب شعيب الحج، تصب كلها في الدلتا التي تكون أحسن أجزاء سهل سعيد تشجيراً. وفي هذا المكان قررنا إقامة معسكرنا لهذه الليلة بين أشجار الطلح. يمتد فوق الأفق الغربي ذلك الضوء البروجي، ذو اللون الأزرق، عند المساء، ويطل علينا من عل كل من الزهرة والمشتري، وهما يلمعان من فوقنا كلما تقدم المساء إلى الليل. ارتحت بعض الشيء عندما علمت أن أبا ساق غير موجود في منزله، إذ اتاح لنا ذلك الانصراف إلى ترتيب معسكرنا دون انقطاع. خرجنا في الصباح الباكر من سهل سعيد ووادي نجران سالكين الطريق العادي للحجاج المحليين المتجهين إلى مكة والذي يضرب عبر التلال أعلى مجرى الإثابية.

كان الأوروبي الوحيد الذي سبقني إلى نجران هو الفرنسي اليهودي يوسف هالفي الذي زار الموقع عام ١٨٧٠م في برامج رحلات قاده إلى كل من الجوف

ومأرب. قام بنشر ذلك للأسف في مقالات تتناول الأطلال والنقوش أوردها في المجلة الآسيوية (Journel Asiatique) (١٨٧٢م) وفي نشرة الجمعية الجغرافية (١٨٧٣و١٨٧٧م) (Bulletin de la Societe Geographique) غير أنه لم ينشر أي شيء عن رحلته المدهشة. كانت إشاراته إلى نجران في هذه المقالات شحيحة جداً وينقصها الكثير من التفصيل الجغرافي لدرجة أن طريقيه اللذين سلكهما من الجوف إلى نجران والعكس لا يمكن وضعهما حتى على خريطة. ويزداد الأسف إذا علمنا أن بعضاً من أجزاء هذه الدروب، خاصة طريق عودته لم يسلكه أي رحالة كفء آخر. لقد ذكرت في ملاحظاتي حول الأخدود ونقوشها الكثير مما يجدر ذكره عن سلفي المميز هالفي.

نشرت مطابع الجامعة العبرية في القدس حديثاً، ١٩٤١م، مجلداً مثيراً للاهتمام بعنوان «رحلات في اليمن» Travels in Yemen تأليف السيد س.د. قوتين S.D. Goitein. يحتوي المجلد على مقالة عن رحلة هالفي ١٨٧٠م بعربية صنعاء وبحروف عبرية من تأليف رفيق هالفي، أحد يهود صنعاء واسمه حايم حبشوش - بالمناسبة: لقد توفى عام ١٨٩٩م- الذي يزعم أنه لم يقم فقط بمرافقة هالفي بل أدى دوراً أكثر أهمية في الحملة مقارنة بما فعله هالفي، وأنه هو الذي قام فعلياً بنسخ كل النقوش التي أحضرها هالفي إلى أوروبا. يضيف السيد قوتن موجزاً كاملاً باللغة الإنجليزية للمتن مع ثبت للمصطلحات وملاحظات أخرى ذات اهتمام كثير، ويعد الكتاب إضافة مهمة لأدب الرحلات العربية. للأسف، فإن رواية حبشوش كانت غير مقنعة، كما كان زميله هالفي، فيما يخص التفاصيل ويصرح لنا حبشوش بالتحديد أنه لم يقم بتدوين أي ملاحظات عن الرحلة. كما يخبرنا أيضاً أنه وزميله هالفي لم يقوما بجمع أي معلومات عن تاريخ نجران ولم

يقتنيا أي كتب. يضاف إلى هذا أن روايته هذه لم تنشر إلا عام ١٨٩٣م أي بعد ٢٣ سنة من انتهاء الرحلة وذلك بعد أن دفعه الرحالة النمساوي المشهور إدوارد جلاسر لكتابتها، ولدينا من الأسباب ما يقودنا إلى التشكك في غياب الذاكرة لديه ويزيدها في ذلك تطبيق الخيال. وهكذا يتبرهن لنا أنه في المواقع التي يتضارب فيها ما سرده هالفي مع ما جاء به حبشوش فإن المرء يندفع لقبول الرواية الأولى التي ربما كان مصدرها هو المذكرات الفعلية لهالفي. إن أخطر ما يمكن أن يواجه به هالفي هي أنه كان عليه أن يعترف لحبشوش بجهده في الحملة أكثر مما فعل، خاصة في نسخه معظم النقوش ذات الأهمية القصوى.

كانت معظم نقاط الاختلاف بين هالفي وحبشوش ذات أهمية ثانوية لحسن الحظ وكانت تنحصر في أسماء الناس، وفي أصل الخطط، إلخ. وسأتجاهل هذه الأمور وأركز تعليقاتي على مقالة حبشوش المثيرة جداً للاهتمام خاصة خلال فترة إقامتهما المؤقتة في نجران. أخبرنا حبشوش في إحدى فقرات مقالته أن نخيل نجران كان من الكثافة للدرجة التي تحجب الشمس ولعل هذا ضرب من المبالغة التي يمكن لنا أن نغفرها له.

ولكن، كما يمكن لقراء روايتي هذه أن يحكموا بأنفسهم، فإن ذاكرة حبشوش بعد انقضاء ٢٣ سنة من الرحلة لابد وأن تكون قد خذلته في تقديره لأبعاد واحة نجران التي قال عنها: إن طولها يستغرق طيه يومين وأن عرضها يطوى خلال نصف اليوم. ذكر أيضاً أن قبائل يام فقط هي التي يسمح لها بامتلاك الأرض في نجران، ولا يسمح حتى للأشراف بذلك، علماً بأنه قد زار المكان خلال موسم حصاد التمر فقط. يذكر قرائي أنه توجد قرية شريفية من ملاك مزارع النخيل في مخابي وأن المكارمة يمتلكون العقار في الواحة. كان حبشوش صادقاً حين ذكر أن

اليهود لا يدفعون إيجاراً لملاك منازلهم. أخبرنا كذلك أنه وهالفي قد وصلا إلى طرف نجران (ربما منجم) بعد ثمانية أيام من مغادرتهما خب، علماً بأن هذا ليس بالأمر الواضح تماماً، وقد كان وصولهما يوم جمعة، وغير أنه لم يخبرنا كم كانت مدة إقامتهما فيها. روى لنا حبشوش عن شهامته حين عرض أن ينقذ بنتاً يهودية من المتاعب وذلك بزواجه منها – وقد كان أقرباؤها المتوقع قدومهم من صعدة يومياً يخططون للقيام بقتلها ذلك لأنها كانت قد اغتصبت – غير أن هالفي اعترض على إدخال أمثال هذه الأشياء التي تضر بعمله، وعليه لم يتم الزواج، ذلك لأن كلا الرحالين لم يعودا أبداً إلى نجران وأن مصير البنت المسكينة لم يتأكد مطلقاً.

أخبرنا حبشوش أنه حضر إلى السوق الموسمية للمزارعين في دحضة، ونحن نعرف أن هذه الأسواق لا تقام هذه الأيام. كان ذلك بعد بنتكوست Pentecost عام ١٨٧٠م، وعليه فيمكن تحديد تأريخه بدقة، غير أننا لا نزال لا نعرف تاريخ يوم الجمعة الذي كان وصولهما فيه إلى منجم أو تاريخ مغادرتهما لها. لقد تأمنت لهم خدمات أحد أفراد قبيلة يام واسمه حنبك، يساعدهما على سلوك الطرق، ولإرشادهما إلى قطف حيث وصلاها بعد عبورهما ممر الحديدة ونزلا في ضيافة أحد اليهود. ثم زارا بعد ذلك مهتاوية وهما في طريقهما إلى الجوف، ويبدو أنه كان من الصعب عليهما زيارة رجزة ومنطقة برت (سوق عنان) في مقاطعة بكيل (ذو محمد).

ربما كان ممر الحديدة هو ممر جلد الآن ولكنه لا يمكن أن يكون باب الحديد، ذلك الممر المشهور الذي يقع بين ظهران وبقم في الطريق إلى صعدة، وذلك لأن المسافة كبيرة جداً والبلاد التي تفصل بينه وبين نجران بلاد صعبة جداً. إذا كنت قد أصبت في تعريفي للممر فلعلهما قد ذهبا عن طريق وادي مروان الذي قد تكون

قرية قطف قائمة عليه في المرتفعات العليا تجاه صعدة. يكون حينئذ من الطبيعي أن نجد اليهود يعيشون هناك. وإذا كان كذلك، فإن مهتاوية التي تقع بين قطف والجوف، قد تكون قائمة في شعيب (ضيدة) أو شعيب أملح أو حتى في المرتفعات العليا لوادي خب. غير أن كل هذا أمر غامض ومبهم. لقد خطر لي احتمال أن يكون ممر الحديدة هو عقبة نهوقة الآن، غير أنه إذا كانا قد ذهبا بذلك الطريق، فإنهما قطعاً سيجدان النقوش الحميرية على قبور ردم سرو إلاَّ إذا كان ترحالهم قد حدث بالليل. أطلق حبشوش اسم ضرم (درم) على هذه الأضرحة وفي رأي السيد قوتين أن «درم» قد تكون أصح من «ردم». وفي حقيقة الأمر، فإن العرب يطلقون عليها «ردم»، وتبادل مواقع الحروف أمر شائع جداً في الجزيرة العربية كما في «زواج» و «جواز».

كان حبشوش مخطئاً تماماً في ربطه بين البنية الطويلة للأجسام لأهل نجران مع لقبهم الوارد في القرآن وهو «خشب الأخدود» والتي تعني «أهل الخدود» أو «خدود»، مكان ذلك العمل الوحشي الذي حدث قبل ظهور الإسلام، حينما قرر تبَّع اليهودي أو حاكم اليمن آنذاك إدخال شعبه المسيحي في نجران إلى دينه اليهودي بالقوة وقد قام بحرق كل عنيد منهم وقد كانوا بالمئات – في خنادق كانت معدة بالحطب لإشعال النار. تسمى أمثال هذه الخنادق «خدود» (مفرد خد) ولما كان حبشوش ملماً باللغة العربية فقد كان يتوقع منه الأحسن. تحدث حبشوش عن برد بأنها مركز الرئاسة للمكارمة، ويستنتج السيد قوتين في استعجال أن «بَدْر» التي أوردها هالفي لا بد أن تكون خطأ في الطباعة. كما أخبرنا حبشوش كذلك أنه في الوقت الذي تمت فيه زيارتهما كانت عقيدة الإسماعيليين –السليمانية ومركزهم في اليمن والداودية ومركزهم في الهند– هي السائدة والمتبعة في نجران، ولعل هذا

صحيح إلى حد ما بطريقة غامضة، . لم يفكر حبشوش، في الختام، كثيراً حول «المناخ غير الصحي» لنجران أو في عصورها القديمة، علماً بأنه لا بد وأن يكون قد قام بزيارة الأخدود بصحبة هالفي. لا يبدو كذلك، أنه شاهد المستودع الثري للنقوش على الصخور الرملية في الجلاميد العليا. لا يبدو لي، على أي حال، أن مقالة حبشوش هذه ذات أهمية كبيرة أو أنها تستحق أن يعتمد عليها. ويهمني هنا فقط ذلك الجزء منها الذي يتعلق بنجران، غير أنني لا أستطيع مقاومة الإغراء إلى عمق أكثر لأتحدّى مصداقية قوله بأنه، في سروة التي تقع في أعلى مأرب، فإن خبز المسافرين ليوم السبت وهو يوم راحة اليهود كان يقوم بإعداده نسوة عربيات صغار السن يرتدين حزاماً حول وسطهن فقط !

أقدم في ختام هذا الفصل الخاص بنجران قائمة مصنفة، بعيدة تماماً عن الكمال، لكل المزارع والآبار والوحدات ذات الأسماء التي تكون واحة نجران. وتشير الحروف (هـ) و (ف) و (م) إلى ملكيتها إن كانت تابعة لقبيلة هندي (هـ) أو آل فاطمة (ف) أو مواجد (م). سيتضح من القائمة أن ما يبلغ عدده ١٩١ وحدة منفصلة كانت ذات أحجام متفاوته وقد ذكرتها بأسمائها في القائمة، وبلا شك هنالك الكثير مما لم يذكر لنقل ٢٥٠. وإذا اعتبرنا وجود ثلاثة قصور في المتوسط لكل وحدة، وثمانية أشخاص في كل قصر، فسنصل إلى عدد تقديري للسكان يعادل ٦٠٠٠ نسمة، وهذا عدد مقبول.

قرى نجران:

١- مخلاف (أو نجران السفلى) (جانب الوادي الأيسر):

أ- مذنب: (ف) (١) منجم.

(هـ) ١- آل بوزبدة ٢- زبيد، (٣) سعيدة (المرزوق)، (٤) قصر على

ب- بني قدمة: (ف) ١- أهل مسعد (آل ظفيرة) (٢) عسام، (٣) أبو فاضل (٤)أم الناس (٥) بير قعير، (٦) أم خزم

(هـ) ١- حرث، ٢- كفيتة، ٣- بئر فضل ٤- حزازم

جـ- صغير: (هـ) ١- آل مقاتل ٢- بئر أثلة ٣- واسط، ٤- مشرف، ٥- رغوة.

٦-بتوعة، ٧- بئر حسين، ٨- رون ٩- بئر زعب، ١٠- بئر نعام، ١١- الحمية (آل ربعة).

(ف) ١- معدية (آل شرية)، ٢- ميدان ٣- بئر على، ٤- سمهر ٥- القوار ٦- البلوعة، ٧- الغويميضة ٨- الصفرا، ٩- بئر قذَّام، ١٠- حبوشة ١١- كحيلة، ١٢- بلوعات العاتح، ١٣- حميدة ١٤- بئر عمار، ١٥- ضيلة، ١٦- عقلة (آل جعفر) ١٧- أم عقربان (آل مرزوق) ١٨- وسيعان (آل شرية)، ١٩- فرحة (آل فرج)، ٢٠ منيفس (آل مسعد)، ٢١- بير قحطان (ابن ريحان من آل مسعد)، ٢٢- الخوار (الليبان).

(هـ) و (ف) [تملك مشترك]: ١- شرمة ٢- عيدان، ٣- جيداوة.

غير مؤكد: ١- آل خريم، ٢- الغين ٣- عكم ٤- آل بوغبار ٥- آل مطير، ٦- بئر الجبل، ٧- تعزة، ٨- عين موسى.

٢- رجلة أو نجران السفلى (جانب الوادي الأيمن).

(هـ): ١- رجلة، ٢- الحرث، ٣- الحريزي (قصر سلطان)، ٤- قصر بن غربان، ٥- قصر بن منيف، ٦- عمير (ابن مرضى)، ٧- ابن عزوه، ٨- هفوف، ٩- كويخ، ١٠- عفية، ١١- دخش بن صقر.

٣- نجران الوسطى (جانب الوادي الأيسر):

أ- صقر: (هـ) ١- ابن زبعان، ٢- دحضة، ٣- بير المطر، ٤- حزيمية، ٥- آل منصور، ٦- آل شافي، ٧- العتران، ٨- ابو وفقة، ٩- بئر على، ١٠- بئر جهلان، ١١- زيته.

ب- بني سلمان: (هـ) ١- سعيدة (قريتان صغيرتان)، ٢- سهه (آل مستنير)، ٣- بئر ربيعة، ٤- بئر سالم، ٥- حضنه، ٦- بلاد بني علي، ٧- زور آل سوار، ٨- آل حابث، ٩- النعمة (آل ريجه)، ١٠- بئر مبارك، ١١- وقواق، ١٢- بئر جحران، ١٣- بئر آل حسين، ١٤- الدحامس، ١٥- بئر بن قدري.

(ف) ١- درب البثه (آل محيمد)

(جـ) مخابي (تنتمي كلها للأشراف) ١- مخبة، ٢- خبية، ٣- صعدة، ٤- بئر مرشد، ٥- عذبة، ٦- قليلة، ٧- عويرة، ٨- صنعاء.

(د) محايدة (حكومية): ١- قصر أبالسعود، ٢- سوق، ٣- قلعة رعوم، ٤- أخدود (قبيبات ابن ثامر).

(هـ) المكارمة: ١- خشيوة، ٢- علو المخلف، ٣- ابن المكارمة، ٤- قصور شعاب بران.

(و) آل مواجد: ١- قنث، ٢- خربة خزام، ٣- مرته، ٤- الحامد، ٥- خرابة عمر، ٦- الشبحان، ٧- مرقة، ٨- الضيفان، ٩- شعب آل برن، ١٠- جبجبة، ١١- خضيراء، ١٢- غيلة، ١٣- قرضه، ١٤- قصر خربة، ١٥- قصور ابن نصيب

٤- وسط نجران (جانب الوادي الأيمن).

(أ) القابل: (هـ) ١- القابل، ٢- جربة، ٣- القريشة، ٤- الجام، ٥- سلوى، ٦- مقشبة، ٧- جديدات الشيبان، ٨- جديدات القرد، ٩- سلف، ١٠- بئر زبيد، ١١- اصلب، ١٢- بئر كعب، ١٣- عصيمية، ١٤- بئر سلطانة، ١٥- بئر منهل، ١٦- مكرمانة، ١٧- بئر دولة، ١٨- محذة، ١٩- مدوَّرة، ٢٠- بيحان، ٢١- يتيمة، ٢٢- ارفجة، ٢٣- ابن رخيم، ٢٤- غريري، ٢٥- بئر عتيق، ٢٦- مريسة، ٢٧- جديدات الجريب، ٢٨- نعمان، ٢٩- جديدات ابن حمران، ٣٠- بئر مجيد، ٣١- بئر غريش، ٣٢- أم الغبة.

(ب) حضن: (م) ١- حضن، ٢- بديعة، ٣- بولة، ٤- بئر سرة، ٥- بئر فريحة، ٦- زور منذر، ٧- بئر المدينة، ٨- الشقوق، ٩- سلوى، ١٠- صفا.

٥- نجران العليا (جانبا الوادي) تتبع كلها المواجد.

١- زور بالحارث، ٢- زور ودعة، ٣- بئر بوبان، ٤- بئر عياض، ٥- بئر يحيى، ٦- بئر سليمه، ٧- بئر مثلع، ٨- نحي، ٩- زيته، ١٠- خيبر، ١١- زور العمارى، ١٢- الكف، ١٣- المملح، ١٤- درب الجبل، ١٥- وشه، ١٦- بئر الشيع، ١٧- حصن، ١٨- قصر سلوى، ١٩- خضام، ٢٠- الموفجة (ابن الحزبر).